

دور الشجر الشفوي في النضال الوطني وثورة التحرير بمنطقة سوف

بقلم

أ/ أحمد زغب

أستاذ مساعد بمعهد الآداب واللغات - المركز الجامعي بالوادي



لا أظنني بحاجة إلى الإسهاب في الحديث عن سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وحياة القهر والذل والعبودية التي عاشها الشعب الجزائري عامة، ومنطقة سوف جزء منه لا تتميز بشيء سوى قسوة الطبيعة الصحراوية، ونمط المعيشة البدوي البسيط لأغلب السكان .

والطبيعة القاسية التي كانت ولا تزال تتسم بالقحط والجفاف على مدار فصول السنة، أمر يجعل البدو - وهم يعولون على ما تجود به السماء من الرزق - يجعلهم كثيري التذمر، كثيري التوجه إلى الله بالابتهال والدعاء، أن ينزل عليهم الغيث النافع، وألا يكافئ عباده على معاصيهم.

لكن بعض الشعراء ردوا ذلك القحط إلى الفساد السياسي، وظلم الحكام، وكثيرا ما كانوا يصرحون بألفاظ تشير إلى الاستعمار مثل الكفار، الرومي، النصارى.... كما كانوا ينتقدون كل من تحمل مسؤولية أيا كانت من أعوان الاستعمار مثل (القياد، القضاة، العدول،)، ممن استغلوا نفوذهم لزيادة الضغط على الشعب، وإرهاق كاهله بالأتاوى والرشاوى، وأسهب الشعراء في الحديث عن طغيان الظلم على الرعية المغلوبة على أمرها، بل إن القحط والجفاف قد يكون عقابا من الله على طغيان

الباطل وضياع الحق بين أيدي أناس لا يخافون الله ، يقول الشاعر إبراهيم بن سمينة * (توفي 1942) :

الباطل رقيع الحق مد ذراعه *** وقووه ناس ما يخافوا الله
سقايد عن طول عمرهم طماعة *** وبنه كلام السوتلتقاه

كما يصرح الشاعر نفسه في موضع آخر ، بأن سبب البلاء الذي يعم البلاد والعباد هم كبار الدولة الذين دأبوا على الفساد السياسي ، كما أن حالة القهر والظلم التي يعانيها الشعب سببها أصحاب المسؤولية. كل ذلك في معرض الحديث عن الجذب والتحط .

يقول الشاعر:

طلبناك يا رب كريم المولى *** واللي طلب الله ما يخياب
راهي خليقتك بايته في هوله *** متكوفخة وذهونها غياب
من عام لول لا شبحنا بلولة *** بيست حطب والريح عنها ساب
رب مسكها عادت بالمجمولة *** قدا وين تمشي تعرضك لجداب

ثم يرد الشاعر سبب تلك الظروف الصعبة والجفاف إلى ظلم كبار الدولة للشعب:

سباب قضاها من كبار الدولة *** الباطل رقيع الحق وبنه غاب
القياه والقاضي معاه عدوله *** يشقلبو عن كل باب وباب
مولى الدراهم حاجته مفصوله *** يثبتو له حقه من غير صواب
وال ما عطاش هناك ساقط قوله *** يديروه كاذب كيف لا ماجاب
وين دور تغدو يا صحاب السولة *** مازال يلزمكم نهار حساب
كبار الشواشي تخون بالمدغولة *** اجملو على راي الهلاك صواب
كلمة الحق ما عادشي مقيولة *** والحق وبنه طار بيه غراب
الحق تدلى *** غاب مع اماليه
غيب ما ولى *** والباطل رقه
شيع وتعلى *** دارو له صرايات
بالظلم طوالت *** فد الخاطر ضاق

والظلم طوالت *** من عكست ليّام

والزّمة طالت

ومع أن الشاعر الشعبي تسيطر على رؤيته للأحداث نظرة إقليمية ترتبط بواقع الأحداث التي يعيشها⁽¹⁾، كما رأينا ذلك في حديث الشعراء عن الجفاف، فإن هذا لم يمنع الشعراء من التصريح بأهل السياسة وهم غالبا الاستعمار وأعدائه، الذين يشبههم أحد الشعراء بالذئاب الذين ينحنون الفرص للانقضاض على فريستهم: الشعب الضعيف.

أهل السياسة ردلو وعاد حكمهم عنيف *** يخلو في الفافل كيف صنعة المذايب
يرخصو بالجيد ويركبو الوصيف *** هاي جتكم دولة منها الرضيع شايب

كما أن الشاعر نفسه في موضع آخر، يحمل حكومة الاستعمار المسؤولية على الظلم والقهر الذي يعانيه الشعب :

الباطل رقي ع الحق بين غلبه *** وزادوه وصله ومتو لحبال

اكل من عمالها لحكومة الكلبة *** بدا الحق راهب م الخصومة ذال

وعلى الرغم من إدراك الشعراء لطبيعة الحكم الاستعماري، وإشاراتهم المختلفة إلى ذلك، فإن التعبير عن قضايا البيئة المحلية، والارتباط بواقع الحياة اليومية، لم يترك المجال للتوسع في القضايا السياسية، كالحديث عن أهداف الاستعمار وممارساته، فقد ظلت قضايا الشعب الجزائري قضايا مبنورة من صورة الاستعمار الفرنسي، تكثر من الحديث عما يراه الشعب في حياته اليومية من مظاهر ظلم هذا الاستعمار. كطغيان القياد والقاضي والعدول.

لكن الحركة الوطنية التي ظهرت في البلاد عموما، ونشرت شيء من الوعي السياسي في أوساط الشعب البسيط جعلت للشعراء رؤى أكثر عمقا وشمول، فقد انتبهوا إلى كثير من القضايا التي لم يكن الشعراء يخوضون فيها، كالتخلف والجهل، فقد عبر الشعراء الشعبيون عن أن هذين العاملين يسهمان بقدر أساسي في إبقاء الحال على ما هو عليه، لذلك فلا بد من محاربتهما هن أجل التحرر.

ويمكن أن نرى بوضوح كيف أن الشاعر الهادي جاب الله (توفي سنة 1978)، وبمناسبة تأسيس فوج كشفي عام 1945، لم يكتف بوضع يده على موضع الجرح، التفرقة والخرافات .. بل يتطلع إلى اللغة العربية، ويتطلع إلى التحرر وقيام دولة جزائرية، ويشيد ببعض زعماء الحركة الوطنية⁽³⁾ :

شعب الجزائر يتماهى من الخرافا * والتفريق اللي ف اطرافه**

يتجمع ويضم اكنافة * هذه أوصافة *** تحيا جمعية الكشافة**

تحيا الجمعية الوطنية والخيرية * الناس اللي يحبو الحرية**

تحيا اللغة العربية بالثقافة * ويتجدد عهد الخلافة**

تحيا الجزائر مجمولة تولى دولة * بعلم اسلامي وهيلولة**

ونلمح وعيا سياسيا أكثر بطبيعة الاستعمار عند الشاعر نفسه، وهو يصور حالة البلاد ترزح تحت حكم استعمار ينهب خيرات البلاد، وينكل بأهلها، ويعول على الرجال أبناء الوطن، الذين لا بد أن يقوموا بدورهم في تغيير الواقع المرير، يقول الهادي جاب الله :

الجزاير واش اللي بيك * اللي والى يتفحل فيك**

قلت لها لا لا * ما تشوفيشي للذلالة**

وليداتك فيهم رجالة * مزغنة رب يهنيك**

البرانية يدو دالة * تقوم الشبيبة وتحميك**

قالت مليت * وتمني في بالهيت**

وينه القمح ووينه الزيت * وينه الصوف إلي كاسيك**

الخاين ساكن وسط البيت * كلا رزقك ويخاصم فيك**

ونلاحظ من خلال النماذج التي بين أيدينا، أتن الشعراء لا يكتفون بالعرض الباهت حيناً والناصح حيناً آخر للقضايا، إنما يتجاوزونه إلى اتخاذ مواقف صريحة، تستهدف الثورة والتمرد على الواقع، والدعوة إلى تحقيق وضع جديد، من ذلك هذا التصريح الذي نجده في أشعار الهادي جاب الله، قاله عام 1944 .

أربعماش وقرن كامل * أحنا رهود والا سكارى**

والآن حانت الساعة *** كونو رجال مثل المصاري

والشاعر الشعبي الذي عاش الفقر والجهل والتخلف والاضطهاد وحيياة
الخصاصة والبؤس، يقف إلى جانب الثورة، ولم يكن يملك ما يخسره بسبب
موقفه، « فوجوده ضياع وحياته بلا معنى، والأمل الذي بقي له هو أن يحقق
ذاته في الثورة، ويجد نفسه في الواقع الجديد»⁽⁴⁾

ومن هنا كان الشعب ينضم إلى صفوف الثورة المسلحة، وكان الشعراء
يقومون بدور فعال في تحريض الشباب على الالتحاق بالمجاهدين، ويشيدون
بكل الأبطال الشجعان .

ويحدثنا الأستاذ أحمد حمدي في كتابه ديوان الشعر الشعبي عن امرأة
تدعى فاطمة منصورى (توفيت عام 1985) ينقل رواية مفادها أنها بدأت
تقول الشعر عند بداية الثورة لتتوقف عنه بعد الاستقلال، وبسبب قصائدها
التي تحث الشباب على الالتحاق بالثورة، اعتقلت ثم زج بها في سجن لامبيز،
ثم أطلق سراحها عام 1957⁽⁵⁾

ومن أهم المعاني التي عبر عنها الشعر تجاه الثورة المسلحة تمنى الشعراء
القدرة على الالتحاق بالثوار، فهذه فاطمة منصورى تتمنى لو كانت رجلا،
إذن لخاضت معترك الجهاد مع الثوار:

مترخص حالي *** رافدني حمان
متحير بالي *** تمنيتني تراس
والعرك موالي *** ندخل للمرداس
ناري نطفيها *** نتقعد ليام
وبلادي نجيبها

وهذا الشاعر محمد الصالح شاقور الذي كان شابا مكفوبا، يتمنى لو
يعود إليه نور البصر ليلتحق بالمجاهدين :

تمنيتهن لشباح *** نروز المجايب واسعة وخليه
نلحق أولاد اسماح *** بيهم نصر الدين والحرية
قلبي يعود مرتاح *** وتبراماج ساكنة جواجية

ويقول الشاعر نفسه في موضع آخر :

تمنيتهن لعيون *** قدا وين نمشي حاجتي مقضية
 لانهودشي مغبون *** نلحق قدا شور العزيز علي
 حمود بوخرطوم *** لهاين الراس عن سبة اسلامية
 الله يجعله منصور *** ليا كنت نمشي بالصفاء والنية

وكان الشعراء يتتبعون أخبار الثورة ويسجلون أحداثها، ويتغنون بانتصاراتها، يقول محمد عاقوبي (توفي عام 1962) :

ثم حوادث خبروها المدة *** قدا الدخلة في جبل زاريف
 على بلادنا كان اللقوتتعدى *** كل من شبجها قال يا لطيف

ويصور لنا الشاعر من خياله وبحسب ما وصله من الرواية السماعية، معركة دارت رحاها بين الثوار الجزائريين وجيش الاستعمار :

أم الكماكم شاهدة معلومة *** في مسكن الثوار ديمة ثم
 في كل خمس أيام فيها خصومة *** الوديان تجري حاملة بالدم
 ليا تقابلو هاذوك مع هاذومه *** وتناطحو مثل لكباش لحم
 قداش منهي ميته مردومة *** وقداش ماتت من عبيد عجم
 أصل النبي في الضرب من دا يرومه *** وما يجي لهم كان اللي وعده تم
 كان العساكر روسها مقسومة *** عن قد ما نبوت الحجر والصم
 شبعان فيها الذيب للقرجومة *** يقعد لحول العام هو يرم

ومن المعاني الواردة في الشعر الشعبي المساند للثورة، الإشادة بأبطال الجزائر عامة، الذين خاضوا معركة التحرير، وتعبير الشعراء عن حبهم، والرغبة في تبليغهم أشواق الشعراء وتحياتهم، تقول الشاعرة فاطمة منصور:

أولاد الجزائر تملو *** والفتن قدو احرايه
 لا يرهبو لا يذلو *** ما تكيدهمش المجابة
 يقسو على هبة الريح *** طابرين فوق السحابة
 بالنور وبالمصايح *** كي يوهرو من غيايه
 أولاد الجزائر تملو *** في الوطن هزو الشيدة

لا يرهبو لا يذلو *** لا تكيدهمش البعيدة
 فيهم ولد بطل معلوم *** للحرب رافع حديدية
 خلط على جيش رومان *** من زنادمه من ايد
 ورجائه مسامياته *** من زروقها للمغبية
 والدم في لرض غدران *** وديان تحمل بديدة
 الله ينصرك ع الكفار *** والله يزيدك الهبة
 وناس العدا ما يحبوك *** تمنيت اللهم مصيبة
 في القايلة والقوايل *** وتثور فيهم حريقة

وتثني الشاعرة على أحد المجاهدين تسميه حمود، قد يكون البطل المعروف حمة لخضر، وتشيد ببطولاته وضربه للعدو :

رايس سلطانه مسّمي حمود *** في عرش اوطانه
 دقاق العديان سيد الرجالة *** بالمدفع والكور متغلب فيها
 تتقمع ليام وبلادي نجيبها

ويسهب الشاعر عاقوبي في ذكر الأبطال وتسميتهم بأسمائهم والثناء عليهم والثناء ببطولاتهم يذكر من أسماء المجاهدين : حمة لخضر، لزهري المموشي، الصيفي، عليّة، عمار، الساكر، سي الجيلاني. يقول الشاعر محمد علي عاقوبي:

أصفاني دا نجيب كلام *** على اولاد ادزاير تمام
 الجيلاني الصيد الزدام *** عنده نصره من السادات
 قالو لا يرقد لاينام *** عاتي في لعدا بقاط
 عاتي يقتل في العديان *** خبره شايد في لوطان
 من مصراته بلقردان *** تونس ودزاير بالذات
 افريقيا وير السودان *** ورقلة وجبهة لغواط
 طالع صيته سي الجيلاني *** وحمة لخضر خبره جاني
 الله ينصرهم يا اوخياني *** الناس الضحو بالحياة
 الله ينصرهم ع الكفار *** ادعو معاي يا حضار

الصيفي واعلية وعمار *** كساره في الدبابات
 الساكر خلاص الدين *** يضرب كان الطيارات
 الساكريضرب في الطيارة *** شكري عنه موش خسارة
 نهار يوم الجمعة بالامارة *** في زاريف الواعردات
 نقز في وسط الكباره *** وردت بيه المخلوقات

وتعبر الشاعرة فاطمة منصورى عن حبها للمجاهدين، وتقول إن محبتهم
 خالصة لأجل الدين والوطن، وتطلب ممن يستمع إليها أن يبلغهم تلك المشاعر:

خويا خويا دير مزيه *** اللهم دز اسوال
 اللي حبهم خويا ساكن *** اجواجية في قلبي شعال
 يا مولاي راقب في *** راك عالم لسرار
 راهي محبه ربانية *** ع الدين أوخيان

وعلى الرغم مما يقال عن الشعر الشعبي من أنه محلي النزعة لا يتجاوز
 الدائرة الضيقة لمحيط الشاعر وواقعه اليومي⁽⁶⁾ إلا أن الثورة أجمت هذا
 الشعور الوطني في صدور الشعراء، بل أكثر من ذلك أصبح للشعراء في
 معالجتهم لكبريات القضايا، أبعاد قومية وحتى إفريقية، فقد كان التفاف
 الشعوب العربية حول الثورة الجزائرية ومؤازرتها حافظا جعل الشعراء ينتبهون
 إلى البلدان العربية وبخاصة تونس ومصر، غير أن هذا الانتباه لا يكاد ينظر
 إلى القضايا العربية إلا باعتبارها قضية واحدة، مشابهة للقضية الجزائرية،
 وهي الصراع ضد الاستعمار، ونلاحظ الشاعرة هاهنا وهي تشعر بالمد
 القومي للثورة الجزائرية في الصحف العربية، ومؤازرة الشعوب العربية
 فتذكر ذلك في شيء من الغموض والإبهام :

عليهم خطب سي جمال *** طالب مشرع كتابه
 الله ينصره ع الكفار *** في اللفظ ما احسن أوجابه

ويصطبغ الوعي القومي بصبغة دينية، إذ الجانب العقائدي أقوى من سائر
 المقومات، وحتى إذا كانت الشعوب العربية تؤازر الشعب الجزائري في

كفاحه ضد الاستعمار، فالقضية هي قضية العرب المسلمين ضد الكفار، يقول علي عاقوبي :

المغرب وتونس حصلت شهوتها *** وبعد العليها زريطو لقلام
مازالت ادزاير على جرتها *** وربي زرع النصر في لسلام
ها الكافرة يا سعد من خطبها *** وربي كتب له لجر يا فهم

ويتجاوز الشاعر الهادي جاب الله البعدين القومي والديني، ويعتبر الثورة الجزائرية رائدة الثورات في إفريقيا، يقول :

يا فريقيا خبرني *** واش قال لسان حالك
ترجعش حرية ديني *** استقلالنا راس مالك
مضى قرن بعد السنين *** حياة الشقا في قدالك
واليوم حليت عيني *** وساعت علي المسالك
جزائري تعرفيني *** في التاريخ لي معارك
ناديت من هو عويتي *** يا مصر تحيا رجالك
بلاغ رسمي يجيني *** من القاهرة راك سالك

وهكذا كان الشعر الشعبي قد سار جنباً إلى جنب مع قضايا الوطن، يعكس أحوال الشعب، وتبرمه من الاضطهاد والظلم، ومهد لضرورة العمل على تغيير الواقع، وسائر أحداث الثورة وآزرها وتغنى بأمجادها وانتصاراتها، كما كانت الثورة عاملاً هاماً في اتساع مدارك الشعراء وثراء شعرهم، وتعميق نظرهم للقضايا الوطنية .

وأخيراً فلا شك أن هذا الشعر احتفى بالاستقلال، وعبر عن الفرحة العارمة بالنصر ونزول المجاهدين من الجبال، يقول بلقاسم كعلة (توفي 1973).

من اين جونا حزب الشوهاد *** دخلو للواد *** نصرو حق الدين وزاد

والنصوص المعبرة عن فرحة النصر أكثر من أن تحصى .

- الهوامش :

- * وينسب هذا الشعر أيضا إلى الشاعر علي بن لعوينية السامثي.
- (1) ينظر : التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 11.
 - (2) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
 - (3) ديوان الشاعر جاب الله الهادي مخطوطة في مكتبة خاصة يملكها الدكتور محمد جاب الله وفيها مقدمة تربط معظم قصائد المخطوط بأهداف الحركة الإصلاحية، وتذكر مناسبات كثير من القصائد، ومنها القصيدة بمناسبة الفوج الكشفي المذكور.
 - (4) التلي بن الشيخ، المرجع السابق ص 11.
 - (5) ينظر : أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي، شعر الثورة المسلحة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996 ص 51.
 - (6) ينظر: التلي بن الشيخ، المرجع السابق، ص 12.
 - (7) إشارة إلى الزعيم المصري جمال عبد الناصر الذي بين الجزائريين آنذاك بمؤازرته للثورة.